٥ ـ أزواج هارون الرشيد

قال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: «الرشيد»: «هارون؛ أبو جعفر بن المهدي بن محمد بن المنصور بن عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن العباس» استخلف بعهد من أبيه عند موت أخيه «الهادي» ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة.

قال الصولي: هذه الليلة، ولد له فيها «عبد الله المأمون» ولم يكن في سائر الزمان ليلة مات فيها خليفة، وقام خليفة، وولد خليفة، إلا هذه الليلة، وكان يكنى «أبا موسى» فتكنى بأبي جعفر، حدث عن أبيه وجده، و«مبارك بن فضالة»، وروى عنه ابنه «المأمون» وغيره، وكان من أمْيَز الخلفاء، وأجلِّ ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج، كما قال فيه «أبو المعالي الكلابي»:

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغورِ
ففي أرض العدو على طِمِرٍّ ... وفي أرض الترفه فوق كورِ

مولده بالري، حين كان أبوه أميراً عليها وعلى خراسان ـ وفي سنة ثمان وأربعين ومائة. وأمه أم ولد، تسمى «الخيزران»، وهي أم «الهادي» وفيها يقول «مروان بن أبي حفصة»:

يا خيزران هَنَاكِ ثم هَنَاكِ ... أمسى يسوس العالمين ابناك

وكان أبيض، طويلاً، جميلاً، مليحاً، فصيحاً، له نظر في العلم والأدب، وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات، لا يتركها إلا لعلة، ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم.

وكان يحب العلم وأهله، ويعظم حرمات الإسلام، ويبغض المراء في الدين، والكلام في معارضة النص.

ثم قال «السيوطي»: وكان يبكي على نفسه، وعلى إسرافه وذنوبه، سيَّما إذا

وعظ، وكان يحب المديح، ويجيز عليه الأموال الجزيلة، وله شعر[١].

وكان كثير الإجلال للعلم والعلماء، فكان يأتي «الفُضَيْل بن عياض» بنفسه إلى بيته، وكان جَمَّ التواضع.

وهذا «أبو معاوية» الضرير، يروي لنا ما جرى بينه وبين «هارون»، يقول «أبو معاوية»: أكلت مع «الرشيد» يوماً، ثم صَبَّ على يدي رجل لا أعرفه، ثم قال «الرشيد»: أتدري من يصب عليك؟ قلت: لا، قال: أنا، إجلالاً للعلم.

وقد نزع الله تعالى من قلبه المهابة لأعداء الله الذين يعتدون على بلاد المسلمين، ويتربصون بأهلها الشر والأذى، يقول «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وفي سنة سبع وثمانية ومائة أتاه كتاب من ملك الروم «نقفور» بنقض الهدنة التي كانت عقدت بين المسلمين وبين الملكة «ريني» ملكة الروم.

وصورة الكتاب: من «نقفور» ملك الروم إلى «هارون» ملك العرب: أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي كانت أقامتك مقام الرُّخِّ، وأقامت نفسها مقام البيذق، فحملت إليك من أموالها أحمالاً، وذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي، فاردد ما حصل قِبَلَك من أموالها، وإلَّا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ «الرشيد» الكتاب استشاط غضباً حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إلى وجهه، دون أن يخاطبه، وتفرَّق جلساؤه من الخوف، واستعجم الرأي على الوزير، فدعا «الرشيد» بدواة، وكتب على ظهر كتابه:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم من «هارون» أمير المؤمنين، إلى «نقفور» كلب الروم. قد قرأت كتابك يابن الكافرة! والجواب ما تراه لا ما تسمعه».

ثم سار ليومه، فلم يزل حتى نزل مدينة «هرقل»، وكانت غزوة مشهورة، وفتحاً مبيناً، فطلب «نقفور» الموادعة، والتزم بخراج يحمله كل سنة، فأجيب، فلما رجع «الرشيد» إلى الرقة، نقض الكلب العهد لإياسه من كرّة «الرشيد» في البرد، فلم يجترىء أحد أن يبلغ «الرشيد» نقضه، بل قال «عبد الله بن يوسف» التيمي:

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدورُ
أبشر أمير المؤمنين فإنه غُنْمٌ أتاك به الإلٰه كبيرُ

وقال «أبو العتاهية» أبياتاً، وعرضت على «الرشيد» فقال: أو قد فعلها؟ فكرَّ راجعاً في مشقة شديدة حتى أناخ بفِنائه، فلم يبرِحْ حتى بلغ مراده، وحاز جهاده، وفي ذلك يقول «أبو العتاهية»:

ألا نادت هرقلة بالخرابِ من الملك الموفق للصوابِ
غداً هارون يرعد بالمنايا ويبرق بالمذكِّرة القضابِ
ورايات يحل النصر فيها تمر كأنها قطع السحابِ

وفي سنة تسع وثمانين ومائة، فادى الرومَ، حتى لم يبق بممالكهم في الأُسر مسلم، وفي سنة تسعين ومائة فتح «هرقلة»، وبثَّ جيوشه بأرض الروم، فافتتح «شراحيل بن معن بن زائدة» حصن الصقالبة، وافتتح «يزيد بن مخلد» ملقونية، وسار «حميد بن معيوف» إلى قبرص، فهدم وحرق، وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً.

وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة، توجَّه «الرشيد» نحو خراسان، فذكر «محمد بن الصباح الطبري»؛ أن أباه شيَّع «الرشيد» إلى النهروان، فجعل يحادثه في الطريق إلى أن قال: يا صباح! لا أحسبك تراني بعدها، فقلت: بل يردك الله سالماً، ثم قال: ولا أحسبك تدري ما أجِدُ، فقلت: لا، والله! فقال: تعال حتى أريك، وانحرف عن الطريق، وأومأ إلى الخواص فتنحَّوْا، ثم قال: أمانة الله، يا صباح أن تكتم عليَّ، وكشف عن بطنه، فإذا عصابة حرير حوالي بطنه، فقال: هذه علة أكتمها الناس كلهم، ولكل واحد من ولدي عليَّ رقيب، فمسرور رقيب «المأمون» و«جبريل بن بَخْتيشُوع» رقيب «الأمين»، ونسيت الثالث.

ما منهم من أحد إلَّا ويحصي عليَّ أنفاسي، ويعدُّ أيامي، ويستطيل دهري، فإن أردت أن تعرف ذلك، فالساعة أدعو ببرذون، فيجيئون به أعجف ليزيد في علتي، ثم دعا ببرذون، فجاءوا به كما وصف، فنظر إليَّ، ثم ركبه، وودعني، وسار إلى جرجان، ثم رحل منها في صفر سنة ثلاث وتسعين ومائة، وهو عليل إلى طوس، فلم يزل بها إلى أن مات.

وكان «الرشيد» بايع بولاية العهد لابنه «محمد» في سنة خمس وسبعين ومائة، ولقبه «الأمين»، وله يومئذ خمس سنين، لحرص أمه «زبيدة» على ذلك.

قال الذهبي: فكان هذا أول وَهْن جرى في دولة الإسلام من حيث الإمامة، ثم بايع لابنه «عبد الله» من بعد «الأمين» في سنة اثنتين وثمانين، ولقبه «المأمون»، وولاه ممالك خراسان بأسرها، ثم بايع لابنه «القاسم» من بعد الأخوين في سنة ست وثمانين ومائة، ولقبه «المؤتمن»، وولَّاه الجزيرة والثغور، وهو صبي، فلما قسَّم الدنيا من هؤلاء الثلاثة، قال بعض العقلاء: لقد ألقى بأسهم بينهم، وغائلة ذلك نفر بالرعية، وقالت الشعراء في البيعة المدائح، ثم إنه علَّق نسخة البيعة في البيت العتيق، وفي ذلك يقول «إبراهيم الموصلي»:

خير الأمور مغبة ... وأحق أمرٍ بالتمام
أمر قضى إحكامه البرْ ... مـن في البيت الحرام

وقال «عبد الملك بن صالح» في ذلك:

حب الخليفة حب لا يدين له ... عاصي الإلٰه وشَارٍ يُلْقِحُ الفِتَنَا
الله قلَّد هاروناً سياسته ... لما اصطفاه فأحيا الدين والسُّنَنَا
وقلَّد الأرضَ هارون لرأفته ... بنا أميناً ومأموناً ومُؤْتَمَنا

قال بعضهم: وقد منع الرشيد الخلافة عن ولده المعتصم لكونه أمياً، فساقها الله إليه، وجعل الخلفاء بعده كلهم من ذريته، ولم يجعل من نسل غيره من أولاد «الرشيد» خليفة[1].

وكان للرشيد خاتمان، نقش على أحدهما «لا إلٰه إلا الله» وخاتم آخر نقش عليه «كن من الله على حذر».

وذكر «ابن جرير الطبري» في تاريخه نساء «الرشيد» وأولاده، فقال: قيل إنه ـ تزوج «زبيدة» وهي «أم جعفر بنت جعفر بن المنصور» وأعرس بها في سنة خمس وستين ومائة، في خلافة «المهدي» ببغداد، في دار «محمد بن سليمان» ـ التي صارت بعد للعباسة، ثم صارت للمعتصم بالله ـ فولدت له «محمداً الأمين»

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٥٣ ـ ٢٥٥.

وماتت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين.

ـ وتزوج «أمة العزيز» أم ولد موسى، فولدت له «علي بن الرشيد».

ـ وتزوج «أم محمد بنة صالح المكين» وأعرس بها في الرقّة في ذي الحجة، سنة سبع وثمانين ومائة، وأمها «أم عبد الله بْنَة عيسى بن عليٍّ» صاحبة دار «أم عبد الله» بالكرخ التي فيها أصحاب الدبس، كانت أملكت من «إبراهيم بن المهدي» ثم خلعت منه، فتزوجها «الرشيد».

ـ وتزوج «العباسة بْنَة سليمان بن أبي جعفر» وأعرس بها في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ومائة، حملت هي و«أم محمد بْنَة صالح» إليه.

ـ وتزوج «عزيزة بْنَة الغطريف» وكانت قبله عند «سليمان بن أبي جعفر» فطلَّقها، فخلف عليها «الرشيد»، وهي ابنة أخي «الخيزران».

ـ وتزوج الجُرَشية العثمانية، وهي ابنة «عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان»، وسميت الجُرَشية لأنها ولدت بجُرَش باليمن، وجدة أبيها «فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب»، وعم أبيها «عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب» ﷺ.

ومات «الرشيد» عن أربع مهائر: «أم جعفر» و«أم محمد بْنَة صالح» و«عباسة ابنة سليمان» و«العثمانية».

وولد للرشيد من الرجال: «محمد الأكبر»، وأمه «زبيدة»، و«عبد الله المأمون» وأمه أم ولد يقال لها: «مَرَاجل»، و«القاسم المؤتمن» وأمه أم ولد، يقال لها: «قَصِف» و«محمد أبو إسحاق المعتصم» وأمه أم ولد، يقال لها: «ماردة»، و«علي» وأمه «أمة العزيز»، و«صالح» وأمه أم ولد، يقال لها: «رثم» و«محمد أبو عيسى» وأمه أم ولد، يقال لها: «عرابة» و«محمد أبو يعقوب» وأمه أم ولد، يقال لها: «شذرة» و«محمد أبو العباس» وأمه أم ولد، يقال لها: «خُبْث» و«محمد أبو سليمان» وأمه أم ولد، يقال لها: «رواح»، و«محمد أبو علي» وأمه أم ولد، يقال لها: «دواج» و«محمد أبو أحمد» وأمه أم ولد، يقال لها: «كِتْمان».

ومن النساء: «سكينة» وأمها «قصِف» وهي أخت «القاسم»، و«أم حبيب» وأمها «ماردة»، وهي أخت «أبي إسحاق المعتصم» و«أروى» أمها «حَلوب»، و«أم

الحسن» وأمها «عِرَابة» و«أم محمد» وهي «حمدونة»، و«فاطمة» وأمها «غُصَص» واسمها «مصفَّى» و«أم أبيها» وأمها «سُلَّر»، و«أم سلمة» وأمها «رحيق»، و«خديجة» وأمها «شَجَر» وهي أخت «كريب»، و«أم القاسم» وأمها «خزق» و«رملة أم جعفر» وأمها «حَلْي»، و«أم علي» أمها «أنيق» و«أم الغالية» أمها «سَمَنْدَل» و«ريطة» وأمها «زينة»[١].

وذكر ابن عبد ربه في «العقد الفريد»: تزوج «زبيدة» واسمها «أمة العزيز»، وتكنى «أم الواحد» و«زبيدة» لقب لها، وهي ابنة «جعفر بن المنصور» أولدها «محمداً الأمين»، ثم «مراجل» فأولدها «عبد الله المأمون» و«ماردة» أولدها «محمد المعتصم»، و«نادر» ولدت له «صالحاً» و«شجا» ولدت له «خديجة» و«لبابة»، و«سريرة» ولدت «محمداً»، و«بربرية» ولدت له «أبا عيسى» ثم «القاسم» وهو «المؤتَمَن»، و«سكينة»، و«حَثٌّ» فولدت له «إسحاق» و«أبا العباس»[٢].

والخلاف بين العقد والطبري في «شجا» وعند الطبري «شجر» وفي «لبابة» وعند الطبري «العباسة» وفي «سريرة» وعند الطبري «شذرة» و«بربرية» وعند الطبري «عرابة» و«حث» وعند الطبري «خبث»، والله أعلم.

قال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وأخرج السلفي في «الطيوريات» بسنده عن ابن المبارك، قال: لما أفضت الخلافة إلى «الرشيد» وقعت في نفسه جارية من جواري «المهدي» فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك، إن أباك قد طاف بي، فشغف بها، فأرسل إلى «أبي يوسف»، فسأله: أعندك في هذا شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين! أو كلما ادَّعت أمة شيئاً ينبغي أن تُصَدَّق، لا تصدقها فإنها ليست بمأمونة، قال ابن المبارك: فلم أدر ممن أعجب: من هذا الذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرَّج عن حرمة أبيه، أو من هذه الأَمَةِ التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أو من هذا فقيه الأرض وقاضيها! قال: اهتك حرمة أبيك، واقض شهوتك، وصيِّره في رقبتي[٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).
(٢) العقد الفريد (٥/ ١١٧).
(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٥٦.

من المعلوم أن القاضي النزيه لا يحابي ولا يداهن، ولا يتكلم إلا بما يوافق شرع الله وسنة رسوله ﷺ، ولا يعني تصديق أن «أبا يوسف» القاضي، بل قاضي القضاة يخون الله ورسوله ﷺ، وهو الذي ملك ناصيته العفة وحاز ثقة أستاذه «أبي حنيفة» يفتي «الرشيد» بفتوى تفضي إلى لذة ساعة وتبقى تبعتها إلى قيام الساعة، وما كان «أبو يوسف» ليطيع مخلوقاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً في معصيته الخالق الذي خلقه وسواه، وإلى أقوم دين هداه، كما أن «الرشيد» المشهود له أنه من العبَّاد الذين إذا سمعوا آية أو حديثاً خشعت جوارحهم، وارتعدت فرائصهم، وسالت مدامعهم بأغزر الدموع، حتى إن الواعظ الذي يعظه يرقُّ له ويشفق عليه، ويرحمه لما يرى من شدة بكائه، إن سمعة «الرشيد» النقية التي بلغتنا تخبرنا أنه كان يحج سنة ويغزو سنة بنفسه ويصلي كل ليلة مائة ركعة، لا تتفق مع مجريات هذه القصة، كما أنه كانت لديه الزوجات والجواري اللاتي يتجاوزن الثلاثين في العدد، وكلهن من أجمل النساء وأعظمهن حسناً وبهاء، فيدعهن جميعاً وإتيانهن حلال، ثم يستدعي قاضي القضاة ليُحِلَّ له شهوة محرمة تطيح بمكانته الرفيعة التي أمضى لبلوغها سنين عدداً.

إنها لقصة مختلقة لا تستحق إعارتها أدنى اهتمام، فالبطلان يكتنفها، ويحيط بها من كل جانب. وأخرج «ابن جرير الطبري» في تاريخه: قال: ودخل «ابن السمَّاك» على «الرشيد» يوماً؛ فبينا هو عنده إذ استسقى ماء، فأُتِيَ بقُلَّة من ماء، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها، قال له «ابن السمَّاك»: على رسلك، يا أمير المؤمنين! بقرابتك من رسول الله ﷺ، لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي، قال: اشرب هنَّأك الله، فلما شربها، قال له: أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ، لو منعت خروجها من بدنك، بماذا كنت تشتريها؟ قال: بجميع ملكي، قال «ابن السمَّاك»: إن ملكاً قيمته شربة ماء، لجدير ألَّا ينافس فيه، فبكى «هارون»، فأشار «الفضل بن الربيع» إلى «ابن السمَّاك» بالانصراف فانصرف[1].

ومن الحوادث الهامة التي وقعت أيام «الرشيد» ذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: في سنة خمس وسبعين، افترى «عبد الله بن مصعب الزبيري» على

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨).

«يحيى بن عبد الله بن حسن العلوي» أنه طلب إليه أن يخرج معه على «الرشيد» فباهله ـ استنزل لعنة الله على الظالم منهم ـ «يحيى» بحضرة «الرشيد» وشبك يده في يده، وقال: قل: اللهم! إن كنت تعلم أن «يحيى» لم يَدْعُني إلى الخلاف والخروج على أمير المؤمنين هذا، فكلني إلى حولي وقوتي، واسحقني بعذاب من عندك، آمين، ربَّ العالمين! فتلجلج «الزبيري» ـ أي تردَّد ـ وقالها، ثم قال «يحيى» مثل ذلك وقاما، فمات «الزبيري» ليومه.

ومن أهم الإنجازات التي تمت في عهد «الرشيد»، كتاب «الخراج» الذي صنفه له قاضي القضاة «أبو يوسف» يعقوب بن إبراهيم الأنصاري.

ومن أبرز الحوادث التي تمت في عهد «الرشيد» قضاؤه على «البرامكة» بعد أن استفحل نفوذهم، وقويت شوكتهم، وكانت البداية بقضائه على «جعفر بن يحيى» حيث أرسل إليه من أتاه برأسه، ثم تتبعهم واحداً بعد الآخر حتى قطع دابرهم. وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة توفي «الرشيد» بطوس كما ذكرنا آنفاً، وقال «أبو الشيص» ـ يرثي «هارون الرشيد» رحمه الله :

غربت في الشرق شمس ... فلها عينان تدمعْ
ما رأينا قطُّ شمساً ... غربت من حيث تطلعْ[1]

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٣٦٤).